تفكيك محتوى الخطـاب الاستشراقــي

د: ناجي شنوف كلية الاداب واللغات

جامعة المدية –الجزائر–

Nadji_2525@maktoob.com

Résumé

L'orientalisme est une lecture consciente de la civilisation et de la loi islamique qui a inscrit l'intérêt de l'autre Toutefois, ces différentes critiques restent sans harmonie .

Cette étude a adopté la question du suivi de ces lettres ; en analysant le contenu du discours orientaliste spécialisé dans la civilisation islamique en mettant la main sur des institutions et des spécialistes de la civilisation islamique en analysant le contenu du discours orientaliste ; tout en essayant de retrouver les principes résultats obtenus.

ملخص:

يمثّل الاستشراق قراءة واعية لما زخرت به الحضارة الإسلامية، أو ما تميّزت به الشريعة الإسلامية من خصائص، أفرز اهتمام الآخر بهذه المنظومة المتناسقة.

غير أنّ هذه القراءة الواعية وما تحويه من أسهم متباينة الاتجاهات، ورؤى نقدية تفكيكية للخطاب الاستشراقي من قِبل المسلمين ذات قوالب غير منسجمة فيما بينها من حيث نقد هذا الخطاب.

ولقد تبنّت هذه الدراسة مسألة رصد خطابات هؤلاء من خلال تحليل محتوى الخطاب الاستشراقي تجاه الحضارة الإسلامية بشموليتها من خلال وضع اليد على بعض من تخصصوا في الحضارة الإسلامية، مع تحليل محتوى الخطاب الاستشراقي مع محاولة الخروج بأهم النتائج المتوصل إليها.

أولا: مدخل إلى الدراسة:

-هدف الدراسة، سبب اختيارها، أهميتها، إشكاليتها:

إنّ الهدف العام من هذه الدراسة تحليل مفاهيم الاستشراق، عبر لوحة فنية فسيفسائية، حاول خلالها المستشرقون إفراغ كل ما يملكونه من خبرة علمية، أو حاسة نقدية، أو وعي باطني استلهموه من بيئتهم الفلسفية، حاولوا خلاله إسقاطه على البيئة الإسلامية، مع أهمّ ما توصّلوا إليه من نتائج أثّرت إيجابا أو سلبا على الحضارة الإسلامية.

والسبب في اختيار مثل هذه الدراسات، محاولة تجلية مواقف الأنا في مواجهته الآخر، في عملية حوارية بين الغرب والرق، فرب يريد، وشرق يقبل بشروط، غرب يوظّف كلّ الوسائل الشرعيةوغير الشرعية، والشرق يقاوم ولا يزال يقاوم إلى هذه الساعة.

ومن ثمّ فإنّ الإشكالية الرئيسية التي تنبني عليها هذه الدراسة تتجلى في إمكانية الاعتداد بالدراسات النقدية التي أفرزتها العقلية الغربية من خلال توظيف الخطاب الاستشراقي، وهل يمكن تصنيفها من حيث موضوعيتها، أو ذاتيتها في عرض نتائجها، وهل يمكن التسليم بما أفرزه الخطاب الاستشراقي من أحكام صوب الحضارة الإسلامية بكلّ مكوّناتها، وحصره في بوتقة واحدة، أو يمكن تصنيفه أيضا ونقده.

فدراسة هذه الظاهرة دراسة إسقاطية، يستنتج من خلالها الكثرة التراكمية في مستوى الكم والنوع، الذي تمتلئ هذه الظاهرة به من الأفكار المتباينة أحيانا، والمتجاذبة أحيانا أخرى، تلك الأفكار التي نلتمس فيها نسبة "الأنا والآخر" المتباينة، فمذاهب التفرّد وعناصر القوّة التي يعتدّ بها "الأنا" جعلت من فرص الالتقاء تبدو صعبة للوهلة الأولى، ولاسيما إذا اعتبرنا المدرسة الاستشراقية المتعصّب منها لم تستسغ تلك الظاهرة التي ترتسم فيها عوامل التحوّل بكلّ سماته العقلية والنفسية، ومع امتناع الرمز التعويضي في هذه المعادلة التي تمثّلت في التحول القبلي السريع إلى ظاهرة حضارية في مدة زمنية قياسية يستحيل الاعتماد عليها في قياس درجة تكوّن الحضارات، وبالتالي وجدنا المشروع الاستشراقي منذ بدايته إلى يومنا هذا –رغم التحوّل البارز في التسمية إلى مصطلحات أخرى يرتئي دارسو الحضارات أن لا يتسموا بمصطلح المستشرقين – يصوغ لنا خارطة بكلّ رموزها وتفاعلاتها ومقوّماتها الحضارية للحضارة الإسلامية، وينتهج سياسة التفكيك المتعدد المعالم، مجزّئا الحضارة الإسلامية إلى وحدات تتناولها المدارس الاستشراقية بالدراسة والتحقيق،مسقطين عليها أدواتهم المنهجية.

–تحديد مفهوم الاستشراق:

تعدّدت تعاريف الاستشراق، وذلك لتنوّع المخرجات الفكرية التي تقوم بدراسة هذا المفهوم، والأدوات والأساليب المستعملة في مثل هذه الدراسات، ومن أهم تلك التعاريف:

–"الاستشراق علم العالم الشرقي، وهو ذو معنيين، عام ويطلق على كلّ غربي يشتغل بدراسة الشرق كلّه، في لغاته وآدابه، وحضارته وأديانه، ومعنى خاص وهو الدراسة الغربية المتعلّقة بالشرق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده"[1].

–وعُرِّف عند آخرين بأنّه "المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه"[2].

– وثمّة مفهوم آخر للاستشراق أكثر عمومية، هو اعتباره أسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الأنطولوجي والابستمولوجي بين الشرق والغرب، إذ يهدف هذا المفهوم إخضاع الشرق للغرب، وأداة ووسيلة للتعبير عن التناقض بين الشرق والغرب[3].

ومن خلال هذه التعاريف نستنتج له أبعادا هي:

البعد الأكاديمي: من حيث اعتبار هذا المنهج من يتخصص فيه من المستشرقين ينبني على أصول علمية، تكون الجامعات والمعاهد المخبر الحقيقي له.

البعد العرقي: إذ يعتبر الاستشراق أسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب.

البعد الاستعماري: من حيث اعتباره الأسلوب الحقيقي لمعرفة الشرق بغية السيطرة عليه ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه[4].

وهذا المفهوم هو الذي فضح الاستشراق وهو يمثل البعد الثالث لرسالة الاستشراق حيث أصبح أداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب[5].

فهو بهذا المفهوم الاستعماري يعمل في مجالين خطيرين:

"**الأول:** التمهيد للاحتلال العسكري والسياسي والاقتصادي بتهيئته الملائمة للاستعمار.

الثاني:تشويه صورة كلّ مُنْتَمٍ للإسلام، وإبراز مبررات احتلال البلاد الإسلامية بالشكل الذي يتناسب مع كلّ بلد من بلاد المسلمين"[6].

غير أننا نجد في شرح "برنارد لويس" لكلمة الاستشراق من حيث أنّها استخدمت في الماضي بمعنيين:"كان المعنى الأول يشير إلى مدرسة الرسم الت ي ضمّت مجموعة من الفنانين معظمهم من أوروبا الغربية، وزاروا الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وقاموا برسم ما شاهدوه أو تخيّلوه، وفي بعض الأحيان كان ذلك بأسلوب رومانتيكي، وفي أحيان أخرى كان إيجابيا.

أما المعنى الثاني للكلمة، وهو الاكثر شيوعا وغير مرتبط بالأول، فقد كان في الماضي فرعا من فروع البحث العلمي منذ عصر النهضة الأوروبية"[7].

ثانيا: الخطاب الاستشراقي بين المنهج العلمي واستدعاء الذات:

الأحكام التي أطلقها الخطاب الاستشراقي صوب الحضارة الإسلامية بكلّ مقوّماتها، إنّما يقوم على منهج علمي اختلطت به أحكام الذات، والرؤى النقدية الضيقة، من ثمّ فقد جاءت أحكامه غير مجرّدة من الذاتية والغائية، فتعدّد الاتجاهات الفكرية والغايات التي لم تكن مجرّدة لوسط كبير منالمستشرقين، صبغ الأحكام والنتائج بالغرضية التي أفضت إلى أيديولوجية غربية مهيمنة على كلّ شيئ.

–ضرورة تصنيف المستشرقين:

تقتضي الضرورة المنهجية تصنيفا عادلا وموضوعيا لكتابات المستشرقين ،إذ يقوم الخطاب على سبر أغوار الكلام، والحفر في تركيبه ودلالته وتشجيره للوصول إلى الحقائق الخفية التي هي روح تسري في مبنى المصطلحات الفكرية، والتي تقتضي من صاحب التجربية الوقوف عند دلالات الخطاب الاستشراقي الذي وإن كانت فيه مكامن قوة في

"صبره ودأبه وانكبابه على أهداف معلنة وغير المعلنة، إلاّ أنّه وفي الوقت نفسه كان محمّلا بمواطن الضعف الاستشراقي المتمثّل في التحامل البشع الذي غذّته التحوّلات الاستعمارية في فكر المركزية الأوروبية"[8].

غير أنّنا لا يمكن التسليم بهذه القناعة وإن كانت صادقة إلى أبعد حدّ، إذ الحكم عن الشيئ فرع من تصوّره كمايقرّره أصحاب المنطق، إذ تقتضي القاعدة وجود متناقضين للخلوص إلى أنّ أحدهما لا يمكن وصفه بالسلبية، من أجل ذلك وجدنا الأستاذ مالك بن نبي يصنف لنا المستشرقين ابتداء بتحديد مفهومهم بأنّهم "الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"[9].

ومن حيث تصنيفهم فقد وزّعهم على طبيقتين من حيث الزمن ومن حيث الاتجاه العام، فمن حيث الزمن، طبقة القدماء مثل: "جربر دورياك"، والقديس "توما الإكويني"، وطبقة المُحْدَثِين، مثل:"كارادي فو"، و"جولدتسيهر"، ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية ، وطبقة المنتقدين المشوّهين لسمعتها"[10].

ولقوّة خطاب المستشرقين المنتقدين المشوّهين للحضارة الإسلامية، لم تُجْدِ موضوعية المادحين في تحريك وُجدان المدافعين عنها، خصوصا في مرحلته الأولى، غير أننا نجد مالك بن نبي ربّما قد شذّ عن قاعدة التعميم في الشكّ في نوايا المستشرقين، فنجده يمدح الجيل الأول من المستشرقين القدماء منهم، أمثال: "رينو"، و "دوزي"،و "آسين بلاثيوس" و "سيديو"، من حيث اعترافه وجيله من المثقفين بهؤلاء المستشرقين الذين يدين لهم "بالوسيلة التي كانت بين يديه لمواجهة مركّب النّقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام الحضارة الغربية"[11].

من جهة أخرى نجد عُذرا منهجيا للذين يؤكّدون على إلغاء مصطلح الاستشراق والمستشرقين من قاموس التعريف.

فعند هؤلاء فإنّ صورة الحضارة الإسلامية التي تجذّرت في الوعي الغربي من خلال الغوص في أعماق الشرق المتخيّل، ممّا أفرز صورة نمطية فسيفسائية عن هذا الشرق، خصوصا ما تعلّق بالدراسات المتعدّدة المستويات ذات الاتجاه الوحيد، وهو قراءة التراث الفكري ، والفلسفي والأخلاقي للحضارة الإسلامية من خلال إسقاط منج غربي في توظيف الوسائل والأدوات ذات العلاقة ببيئته الفلسفية ،والاجتماعية،والأخلاقية ، والاقتصادية، من هذا المنطلق فإنّ كثيرا من منظري العرب والمسلمين قد بنوا قناعاتهم الفكرية من حيث تحديد مفاهيم الخطاب الاستشراقي على أنّه "تعبير عن تخارج الثقافة الغربية من حيث اعتباره يعتمد على مبدأ التسلّط، أي أنّ العلامة التي ترسمها ثقافة التسلّط، أوسلطة الثقافة الغربية مع الثقافات التي تقع خارج حدودها الجغرافية، ليست علاقة حوارية، بل قناعة قمع وإلغاء، أو إقصاء، وهذا الإلغاء يتمّ تنفيذه عن طريق إعادة تقديم الآخر بصورة تمثيلية تحقق القناعات والأحكام المسبقة التي تحملها ذهنية الغربي عن الشرق"[12].

حتى إننا نجد أحد كبار المستشرقين المعاصرين يقرّ بصعوبة الموقف، زيرى بضرورة إعادة النظر في مصطلح المستشرق، لما يحمله من دلالات، فهو يقول:" لقد فسد الآن مصطلح "مستشرق" إلى حدّ لا يمكن إصلاحه ولكنّ هذا الأمر يُعدُّ أقلّ أهمية قياسا إلى فقدان الكلمة قيمتها، بل لقد أهملها في الواقع أولئك الذين حملوها في الماضي، وقد أعطي هذا الإهمال تعبيرا رسميا في المؤتمر العالمي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عُقِد في باريس صيف عام 1973،....، وأصبح من الواضح سريعا أنّ هناك إجماعا لصالح إلغاء التسمية"[13].

وهذا الحكم الذي يضرب كلّ الأسماء والمباني والمرادافات والدوال ومدلولاتها، والصور الظاهرة والخفية التي يتقلّب فيها الاستشراق، أضحى بسبب حساسية ليس في المسلمين فقط، بل عند صناع القرار في المنظومة الغربية، فراحوا يبحثون عن بدائل تقوم مقامه ظاهرا، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّه ليس هناك فرق بين الاستشراق التقليدي أو الكلاسيكي، والاستشراق الجديد أو المعاصر، "أو ما يعبّر عنه بما بعد الاستشراق، قياسا على مصطلح ما بعد الحداثة، سوى الميل إلى انّه لافرق بينهما إلاّ بالأدوات، فقد غيّر الاستشراق أدواته ولم يتغيّر في مفهوماته"[14].

-الاستشراق ومسألة الاستعلاء العنصري والاستعماري:

لقد استقرّ في خَلد كثير من الباحثين العرب، والمسلمين، أنّ الاستكشافات التي قامت بها المنظومة الغربية لبلاد المشرق عبر رحالة هم في حقيقة الأمر خبراء استراتيجيون، قد مسحوا جغرافية تلك الدول بغية الوصول إلى أهم النتائج المساعدة في وضع اليد بالقوة على تلك المناطق.

ورغم ما تحصلوا عليه من ثروات فكرية تعتدّ بها تلك البلاد المستكشِفة، إنّما كان الغرض المبيَّتُ يتمثل في مسألة الاستحواذ، والعنصرية، ومسألة الاعتداد بالموروث الغربي الحضاري، فالاستشراق عموما في "منطقه المتعالي ينسجم تماما مع نظرة الاستعلاء والعنصرية الغربية...، فالغرب كان منذ الإغريق والرومان وحتى اليوم يرى نفسه معدن الحضارة ومركز العالم...، وقد تمكّنت نظرة الاستعلاء في الإنسانالغربي حتى أصبحت بمثابة الجِبِلَّة الثابتة، وقد برّرها لهم كبار فلاسفتهم من لدن "أفلاطون" و"أرسطو"..، إلى "نيتشه"، وريتان" و "جوزيف آرثر جوبينو"، و "لان" و "جوتيه"،و"بروهيه" و"كوزان"...،وقد كانت النظرة العنصرية الغربية السبب البعيد وراء معاناة الإنسانية"[15]، فلقد أضحى الاستشراق أسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب.

ومن هذا المنطلق، فقد اعتمد الخطاب الاستشراقي في دراسته للشرق على مصطلحات ذات دلالات عنصرية استعمارية تحقيرية، ومن أهمها مصطلح "التمثيل والتماثل"، إذ يقصد بالتمثيل التخيّل الغربي لصورة الشرق خارج الإطار الواقعي للشرق كاما وصفه "إدوارد سعيد"، أما التماثل فهو السياسة الاستعمارية الغربية التي استهدفت مَحْقَ خصوصية الثقافات الشرقية، واستبدالها بالثقافة الغربية لتسهيل تنفيذ المخطّطات الاستعمارية، وحماية مصالح الدول الكبرى، وكما أسلفناه فإنّ البعض يؤكّد صحّة كون الحركة الاستشراقية في بداياتها الأول إنّما كانت "لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية والنفسية للشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار"[16].

لكنّها لم تكن هي الأساس الذي استمرت عليه الحركة الاستشراقية في تحديد مسارات الفكر، وتقويض فلسفات وأفكار الآخر، فبمجرّد تحرّر بلدان المشرق والمغرب من قبضته، تحوّلت آليات الاستشراق، وتغيّرت ادواته، مع أنّ الأهداف الظاهرة والخفية هي هي لم تغيّر البتة،إذ حلّ محلّها "استعمار من نوع جديد هو استعمار الفكر، وتسلّط المبادئ الاجتماعية، ونمط الحياة وصولا في النهاية، إلى الخضوع السياسي والاقتصادي"[17].

ولقد وقف الباحثون على أهم فئات المستشرقين الذين كان لها الدور البارز في تفكيك الحضارة الإسلامية، والذين تعدّدت وظائفهم فكانت تقسيماتهم كاللآتي:

أ-فريق من طلاب الأساطير والغرائب الذين كانت همّتهم إبراز خصائص الحضارة الإسلامية في ثوب من الدجل والشعوذة، والغوص في الأساطير التي تتنافى والمنهج العلمي، وما إصرارهم على إبراز النتاج الثقافي الذي أفرزته عقلية متأثّرة بالتقاليد البالية، ككتاب ألف ليلة وليلة، وغيره من الكتب الأدبية والتاريخية، والفلسفية، أملى على المتخصصين

التحقّق من نتيجة خلوّ هذه الفئة الاستشراقية من منهج علمي دقيق يسقطونه على الحضارة الإسلامية في إبراز محاسنها وساوئها، وهو هدف أُريدَ من خلاله تشويه ثوابت الحضارة الإسلامية ومساراتها المعتدلة، وقد "ظهر هذا الفريق في بداية نشاة الاستشراق واختفى بالتدرّج"[18].

ب–كما ظهر فريق آخر ممّن وظّفوا أساليبهم في دعم المصالح الغربية الاقتصادية ، والسياسية والاستعمارية، القائمة على أهداف ذرائغية، غير أنّ البعض يعتقد أنّ هذا الإسناد غير مبرّر حيث يكون من الخطأ إذا " قلّلنا من أهمية مخزون المعرفة الموثّقة، والتقنيات الاستشراقية في كتابات الغربيين من أمثال "كرومر" و "بلفور"، فأن نقول ببساطة أنّ الاستشراق كان إضفاء لعقلنة منظّرة مسوّغة على الحكم الاستعماري، هو أن نهمل المدى البعيد الذي كان عليه الحكم الاستعماري قد سُوّغ من قبل الاستشراق بصورة مسبقة، لابعد أن حدث"[19].

3–الخطاب الاستشراقي والمنهج العلمي:من المستشرقين من واكب في خطاباته المنهج العلمي، معتمدين أسلوبا تصنيفيا لأهم المحاور التي يتناولونها في التحليل، والذي يتضمن عادة:

–القرآن الكريم–سيرة النبي ﷺ–الشريعة الإسلامية–العقيدة الإسلامية–الخلافة الإسلامية–الحياة العقلية[20].، غير أنّهم نهجوا طريق الغاية التي تبرّرها الوسيلة، لما في هذا المنهج من أثرسلبي على المادة أو العينة، أو التراث المراد دراسته، فنصبّت جهود المستشرقين في إبراز عوامل الضعف في الحضارة الإسلامية، والتشكيك في ثوابتها، والحطّ من إنجازاتها، "فوقعوا في شبهات أبعدتهم عن معيار البحث العلمي الموضوعي، فوقعوا في اخطاء كبيرة أودت بالاستشراق إلى أن يقع في نظر كثير من المسلمين في إطار الشكّ والريبة في النوايا والأهداف"[21].

غير أنّ المستشرقين الأكاديميين ينأون عن استعمال المصطلحات التي تحطّ من قدر الحضارت بقدر ما يعتمدون على المنهج العلمي الذي وضعوه، والذي يبدو عند البعض أنّه من إنتاج التفكير العلمي الخالص، غير أنّ تأثّره ببيئة المنظّر بادية عليه جليّا، يقول المستشرق الألماني "رودي بارت":"فنحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية، لا نقوم بها قطّ لكي نبرهن على ضِعَة العالم العربي الإسلامي بل على العكس نحن نبرهن على تقديرنا الخالص للعالم الذي يمثّله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبّر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كلّ شيء ترويه المصادر على عواهنه، دون ان نُعْمِلَ فيه النظر، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التايخي أو يبدو وكأنّه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبّق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبّقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدوّنة لعالمنا نحن"[22].

من أجل ذلك وجدنا أنّ الخطاب الاستشراقي في مناهجه المسقطة على تراث وحضارة الآخر، خصوصا الحضارة الإسلامية، إنّما سيطر عليه الطابع الإيديولوجي الذي انتفت فيه عناصر الدراسة الجادة، والبحث المعمّق في أفكار وتصوّرات الآخر، وغرق في أسر الذات المتأثّر بواقع معيش تعجّ فيه الأفكار والتصوّرات التي لا تمتّ إلى المنهج العلمي السليم، فتجعل من أعمال المستشرقين ونتائجهم لا تسلم من الزلل "حين يخرج من الوصف إلى الحكم الذي لا يستند إلى الدراسة المتأنية، بقدر ما يستند إلى هشاشة الأهواء"[23].

ومن الأمثلة التي نتلمّس فيها إيحاءات المنهج العلمي وقد تلبّس بالأيديولوجية الغربية من حيث مبالغة بعض مستشرقي الغرب في تمييز ثقافتهم ، والتعالي بحضارتهم، إلى أن أنقصوا من قدر الحضارات الأخرى،خصوصا الحضارة الإسلامية التي تعدّ الإنسان المعادلة الأساس في ارتقائها أو كمونها، والشرق الذي هو لفظة التي تطلق على الموقع الجغرافي

للدلالة على الرمز الإسلامي، لا يملك أدوات التقدّم التي يمتلكها الأوروبي –الغربي– خصوصا أنّ طبيعة تعامله مع الأدوات العلمية يتميّز بالسطحية وأحيانا غياب الذكاء الذي يفرض عليه التقدّم، إذ نجد "كرومر" دلالة الصورة التي تؤكّد طبيعة الصراع الحضاري الكامن وراء نفسية وعقلية الغربي، إذ يقول:"الافتقار إلى الدقّة الذي يتحلّل بسهولة ليصبح انعداما للحقيقة، هو في الواقع الخصيصة الرئيسية للعقل الشرقي، الأوروبي ذو محاكمة عقلية دقيقة، وتقريره للحقائق خالي من أي التباس، وهو من قبل أن يستطيع قبول الحقيقة، ويعمل ذكاؤه المدرّب مثل آلة ميكانكية، أمّا عقل الشرقي فهو على النقيض، مثل شوارع مدنه الجميلة صوريا، يفتقر بشكل بارز إلى التناظر، ومحاكمته العقلية من طبيعة مُهَلْهَلَةٍ إلى أقصى درجة، ورغم أنّ الغرب القدماء قد اكتسبوا بدرجة أعلى نسبيا علم الجدلية "الديالكتك"، فإنّ أحفادهم يعانون بشكل لا مثيل له من ضعف ملكة المنطق، وغالبا ما يعجزون عن استخراج أكثر الاستنتاجات وضوحا من أبسط المقدمات التي قد يعترفون بصحتها بدءا...، وبوجه عام فإنّ الشرقي يتصرّف ويتحدّث ويفكّر بطريقة عي النيض للمطلق لطريقة الأوروبي"[24].

غير أنّ الاستشراق يبقى يتراوح مكانه في تبرير سياسة الغرب في الهيمنة على الشرق، أو ما يسمى بالصراع الحضاري، فرغم النقلات الهامة التي شهدها على "مدى القرنين المنصرمين، ظلّ في الجوهر عاجزا عن التطوّر بسبب تمسّكه بخرافةكبرى حول الشرق، أنّ الثقافة الشرقية هي في حدّ ذاتها ثقافة التطوّر الموقوف بصفة دائمة"[25].

4–ردود فعل الآخر تجاه الخطاب الاستشراقي:

أثّر الخطاب الاستشراقي على الفكر العربي الإسلامي، من حيث إنتاجه لردّة فعل ذات خطوط وأسهم متباينة، فرغم ردّة الفعل القوية من قبل الكثيرين من مناوئي هذا الفكر، غير أنّ البعض الآخر رأى في تنوع الخطاب الاستشراقي و تعدّد مراكزه ضرورة دراسته والاهتمام به، وذلك من عدّة جوانب أهمّها:

–حبّ الاطّلاع على آراء المفكرين غير المسلمين في الإسلام وفي كتابه ودينه، ولا سيما المستشرقون الذين نظروا إليه من عدّة زوايا بحسب ثقافة كلّ باحث وتخصّصه وهوايته، أفضى إلى ضرورة قراءة ما كتب عن الإسلام في شتى جوانبه من داخل مجتمع المستشرقين، وذلك عن طريق "إرسال بعثات إسلامية إلى جامعات أوروبا والاستعانة بالمستشرقين في التدريس بالجامعات العربية، وترجمة إنتاجهم للإفادة منه، وتعيينهم في المجامع اللغوية والعلمية بمصر وبغداد ودمشق"[26].

–محاولة سدّ ثغرات الهجوم العنيف الذي تعرّض له الفكر الإسلامي بشمولية من قبل مستشرقين متعصّبين، وذلك بتفنيد آرائهم، والكشف عن حقيقة ما يخفون وراء المسوح الدينية أو العلمية، من أغراض استعمارية أو نزعات صليبية، وأن ليس لهم هدف سوى توهين العالم الإسلامي، والحطّ من قيمها الإنسانية وزرع الشكوك حولها [27]، يقول المستشرق الفرنسي "كارادي فو"**Carra de vaux**:"ظلّ محمّد زمنا معروفا في الغرب معرفة سيّئة، فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة التي نسبوها إلأيه"[28].

بينما يرى البعض في الاستشراق رابطة تقوي علاقات التثاقف بين الشعوب لا سيما في "العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، فإنّ هذا يعني إعطاء هذا المحدّد القيمة الفعلية التي يُنظر من خلالها إلى إسهاماته في التقريب بين الثقافات، أو الإسهام من جانب آخر في تأصيل مفهوم الافتراق والتضاد و التناحر بين الثقافات"[29].

وأما هذا التخصص الدقيق في سبر أغوار الدراسات الاستشراقية، استنتج الباحثون أنّ –الخطاب الاستشراقي يتسم بالإيجابية كما يتسم بالسلبية.

فمن أهم السلبيات:

–التشكيك في أصالة الفكر الإسلامي.

–التشكيك في أصالة الشريعة الإسلامية.

–التشكيك في أصالة النحو العربي.

–التشكيك في أصالة الأدب العربي.

–التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث.

–التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية.

أما الإيجابيات:

–ضرورة عزل الاستشراق عن الاستعمار والتنصير.

–توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق.

–تأثير الفكر الاستشراقي في الغرب.

–تطويرهم لمنهج النقد للبحث في التراث الإسلامي.

–مساعدته في تعريف الغرب بالإسلام وحضارته وبالتراث العلمي للمسلمين[30].

وأمام هذه المعايير المتباينة فيما يخص أهداف الاستشراق تبقى الأبواب مفتوحة لكلّ ما يجري البحث عنه في أعماق هذا المدلول، وتبقى الآراء المتناقضة طافية على ساحة الأحداث ولا يمكن الظفر بالنتاءج النهائية إلاّ إذا تلاشت الأفكار الاستهلاكية التي تعتبر الشرق هو استهلاك الغرب له، ومن ثمّ إنكار وجوده.

وإضفاء الموضوعية في الدراسات الاستشراقية مشروطة بتغيير الأساليب الأساليب والأدوات التصنيفية التي تمكّن المستشرق من التحرّر من جملة الأفكار التي سيّجت مقولاته، وصبغتها بصبغاتها المتناقضة.

ومسألة التعامل مع الخطاب الاستشراقي لابد أن تتميّز بالموضوعية، ومحاولة قراءة الخطاب قراءة واعية بعيدة عن البراغماتية التي من شأنها قبول ما يخدم المصالح، فالأصل في التعامل مع الاستشراق تحكمه قاعدة الصلاحية التي ينضبط بها المجتمع، فالأحكام التي يطلقها الخطاب إذا انسجمت مع هذه الصلاحية لابد من التوافق معها إذا كانت مصلحة لوضع قائم "لهذا لابد من توفّر قدر كبير من الثقة بالنفس ومعرفة قدرها حتى يكون التلقي لنتائج المستشرقين علميا واعيا لما يقال"[31]

–وأهم ما توصي به هذه الدراسة:

1- ضرورة إعادة النظر في تحليل محتوى الخطاب الاستشراقي.

2-محاولة تصفية محتوى الخطاب الاستشراقي منخلال وضع أطر نسقية في شكل مصفوفة بيانية توضح لنا مفاهيم الاستشراق وتنوع اتجاهاته.

3- ضرورة إنشاء مراكز أو مخابر أو فرق بحث متخصصة في الخطاب الاستشراقي، تقوم بعملية تفكيك دقيقة لفلسفته ولمبادئه ومدارسه ودوله، ولن يتم هذا إلا إذا كُوِّنت نخبة متخصصة في جامعات الوطن، وهذا يدعونا إلى اقتراح إنشاء أقسام متخصصة في الخطاب الاستشراقي القديم والمعاصر حتى نتلافى جملة من الأخطار المحدقة بالفكر الإسلامي، وحتى نخفّف من حدّة التوتر والاحتقان الذي تعيشه الحضارات المختلفة.

توثيق مراجع الدراسة:(1)-محمد حمدي زقزوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، كتاب الأمّة، قطر، الطبعة الأولى، سنة النشر،1404هـ، ص،41.

(2)-إدوارد سعيد، **الاستشراق،المعرفة، السلطة، الإنشاء**،

(3)- عامر رشيد مبيّض، **موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية، العسكرية، مصطلحات ومفاهيم**، دار المعارف، سوريا، الطبعة الأولى، سنة النشر، 2000،ص،68.

(4)- محمد إبراهيم الفيومي، **الاستشراق رسالة استعمار، تطور الصراع الغربي مع الإسلام، دار** الفكر العربي، القاهرة، مصر، طبعة سنة 1993، ص،144، بتصرف.

(5)- المرجع نفسه، ص،149.

(6)- السيّد أحمد فرج، **الاستشراق، الذرائع، النشأة، المحتوى**، دار طويق، الرياض، السعودية، الطبعةالأولى، سنة النشر، 1994، ص،74.

(7)-برنارد لويس، **الإسلام والغرب**،ترجمة،فؤاد عبد المطلب، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق سورية، طبعة سنة، 2007،ص،154، بشيء من التصرّف.

(8)-مصطفى نصر المسلاتي،**خطاب الاستشراق إلى أين؟**،دار اقرآ، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1998،ص،9.

(9)-مالك بن نبي، **إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، دار الرشاد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1969،ص،5.

(10)-المرجع نفسه،ص،5، بشيء من التصرّف.

(11)-المرجع نفسه،ص،7.

(12)-صلاح الجابري، **تفكيك الاستشراق**،قراءة واقعية نقدية، ليبيا، طبعة سنة، 2005،ص،

(13)-برنارد لويس، الإسلام والغرب، مرجع سبق ذكره،ص،157.

(14)–علي بن إبراهيم النملة،**صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها**،دار الفكر، بيروت لبنان، د.ت.ن،ص،15.

(15)–محمد عبد الله الشرقاوي،**الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر** ،ص،178.

(16)–المرجع نفسه،ص،187.

(17)–المرجع نفسه،ص،187.

(18)– حمدي زقزوق، مرجع سبق ذكره، ص،42.

(19)–إدوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سبق ذكره،ص،70.

(20)–عادل ماجد محمد،**الفهم الاستشراقي لتفسير القرآن الكريم**، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، العراق، سنة،2007،ص،13.

(21)–المرجع نفسه،ص،13.

(22)_رودي بارت، **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية**، ترجمة مصطفى ماهر،دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د.ت.ن،ص،10.

(23)–عبد المتعال محمد الجبري، **الاستشراق وجه للاستعمار الفكري**، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1990، ص،51.

(24)–إدوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سبق ذكره،ص،70.

(25)–إدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة وتعليق صبحب حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لابيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1996،ص،27.

(26)_التهامي نقرة، **القرآن والسنة**، كتاب ندوة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج1، ص،25.

(27)–المرجع نفسه،ج1ص25.

(28)–المرجع نفسه،ج1ص25.

(29)–علي بن إبراهيم النملة، صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها، مرجع سبق ذكره، ص،87.

(30)–محمد خليفة حسن،**آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية**،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1997، ص ص،101–135، بتصرف تام.

(31)–خيري منصور، الاستشراق والوعي السالب، مرجع